

الأدب العربي في مواجهة المحن (القسم الثاني)

أسماء المشاركين:

أ.د. تركي الفيض

أ.د. حمد العجمي

أ.د. موسى ربابعة

تدركي المغيضة

الشعر العربي وثيمة الأوبئة

لقد كان موضوع الأوبئة منذ زمن قديم ثيمة من ثيمات الأدب شعره ونثره، وتناولها الشعر الغربي والعربي؛ فقد أثرت الأوبئة على الناس والمجتمعات والدول على مرّ التاريخ البشري منذ أول تفشٍ معروف عام 430 قبل الميلاد خلال الحرب البيلوبونيسية (بين حلفاء أثينا وحلفاء إسبرطة)، وحتى جائحة كورونا المعاصرة التي أثرت على الإنسان والمجتمع والاقتصاد والسياسة والتعليم والعلاقات الاجتماعية.

الشعر في مواجهة الأوبئة

لقد تصدى الشعر للأوبئة منذ القدم، وقدم الشعراء وصفاتهم وتقاريرهم الطبية على طريقتهم لأجل شفاء العالم، ليس من الأمراض الوبائية فقط، وإنما من الأمراض الاجتماعية والأخلاقية والقيمية أيضاً، مثل: الجهل والجشع والنفاق والظلم والقمع والاستبداد والعبودية والعنصرية. ومنذ زمن طويل كانت ثيمة الأوبئة تقليداً أدبياً ماثلاً في التاريخ الشعري القديم. فقبل تسعة قرون كتب الأديب عمر المعري الكندي المعروف بابن الوردي قصيدته عن "الطاعون" الذي أصاب مصر وبلاد الشام وبلداناً أخرى، واعتُبرت قصيدته من قصائد رثاء النفس؛ إذ توفي بسبب الطاعون بعد يومين من كتابتها، حيث قال:

ولستُ أخافُ طاعوناً كغيري فما هو غيرُ إحدى الحسينين
فإنّ متُّ استرحتُ من الأعداي وإنّ عشتُ اشتفتُ أذني وعيني

وقال عن الإسكندرية بعد ما أصابها الوباء:

سألْتُ باري النّسم في دفع طاعون صدم
فمَنْ أحسّ بلع دم فقد أحسّ بالعدم

ومن أشهر القصائد التي كان الوباء موضوعها قصيدة " الكوليرا " للشاعرة العراقية نازك الملائكة، وقد فاقت قصيدتها قصيدة الأديب المصري علي الجارم الذي كتبها عندما ضربت " الكوليرا " مسقط رأسه مدينة " رشيد " بمصر عام 1895م .

فقد صوّرت قصيدة نازك الملائكة " الكوليرا " ظلال الموت والمعاناة ومدى المأساة التي اجتاحت مصر خلال الأشهر الأخيرة من عام 1947 . وأسفر وباء الكوليرا في مصر حينها عن وفاة أكثر من عشرة آلاف شخص . وتستحضر الشاعرة نازك الملائكة في قصيدتها صوراً حيّة لعربات تحمل جثثاً، وتُصوّر مشاهد الموت المأساوية بصور تعبيرية دقيقة، كما تعكس حالة الفرع والصمت والهول الذي سببه فتك مرض الكوليرا بالناس، فتقول الشاعرة :

" في شخص الكوليرا القاسي ينتقم الموت

الصمت مرير

لا شيء سوى رجع التكبير

حتى حفار القبر ثوى لم يبق نصير

الجامع مات مؤذنه

الميت من سيؤبئه؟ لم يبق سوى نوح وزفير

الطفل، بلا أم وأب، يبكي من قلب ملتهب

وغداً، لا شك، سيلقفه الداء الشرير "

والأمثلة الشعرية كثيرة، ولا يتسع المقام لذكرها، غير أنّ ما ذكر من أمثلة تدلّ دلالة واضحة على أنّ ثيمة الأوبئة كانت من أهم ما تناوله الشعر من موضوعات، وتعكس دور الشعر في مواجهة الأوبئة ووصف ما خلفته من مأس وآلام وأحزان .

الشعر في زمن الكورونا

لقد أسهم الشعر في زمن الكورونا إسهاماً إيجابياً في التوعية وتقديم النصائح

والمواعظ، والحث على الالتزام بالإجراءات الاحترازية والوقائية . وغدت جائحة كورونا مُلهمة للشعراء والكتّاب؛ إذ دفعت الكثير من الشعراء ليصفوا هذه الجائحة، ويبيّنوا أثرها المدّمّر على البشر والدول .

فقد تغيّر كلّ شيء في زمن الكورونا؛ إذ أخذ الوباء يتمدّد بين أجساد البشر كأفعى عصبية على الفناء، لسعت حناجرهم وأنوفهم، وأودت بحياة مئات الآلاف من البشر . وعزل الوباء مئات الملايين من الناس في منازلهم، وأصاب الملايين بإصابات مباشرة، وأغلقت دور العبادة، وبدلاً من التقارب في الصلاة أصبح التباعد فرضاً، وفرض الوباء منع التجوّل، وخيّم على الناس الفرع والهلع والارتباك، وأصبحت المدن والقرى خالية من البشر، وصارت ميادين للطيور والحيوانات الأليفة، وأوقف الوباء الحياة بكل أبعادها الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية والسياسية .

وانعكس ذلك كله على الشعر، ففتح دفاتره لينشر تقاريره من هذا الوباء انسجاماً مع طبيعة الشعر المتفاعلة مع الحياة وتأثره بالقضايا الإنسانية وانفعاله بالحياة وإحساسه بها . فالشعر هو الأداة التي تترك أثراً في النفس الإنسانية، كما أنّ للشعر دوراً في الحث على مواجهة المصائب، والبعث على الأمل في التغلب عليها .

إنّ الشاعر يُعبّر عن نفسه أو عن موضوعه بحسب ما يميله عليه هذا الموضوع عبّر طريقتين، طريقة مباشرة، وأخرى غير مباشرة . وهذا ما يظهر في النصوص الشعرية التي اتخذت جائحة كورونا ثيمة لها . فهناك قصائد تناولت جائحة كورونا بشكل مباشر، وبأسلوب توعوي نُصحي، وقصائد أخرى تناولت كورونا بطريقة غير مباشرة مزجت فيها بين الوصف وإسقاط بعض الرؤى الدينية والسياسية والفلسفية والكونية والعلمية؛ بحيث تصبح القصيدة صالحة لأزمة متعددة .

واللافت للنظر أنّ القصائد التي تناولت جائحة كورونا كانت كثيرة، ولهذا سنذكر مقتطفات منها . ففي قصيدة " الناس تصرخ " للدكتور عبد الرحمن العشماوي، يقول :

أهكذا تسجنُ الدنيا ومَنْ فيها سجنائِكِبَلْ قاصيها ودانيها
ماذا دهاك كورونا أنت مُختبئٌ عن أعينٍ لم تزل تبكي بواكيها

حجبت كُلَّ حبيبٍ عن أحبته فما تُصافح كفُّ مَنْ يُحييها
مَنْ أنتَ؟ كيف اقتحمت الأرضَ قاطبةً حتى سرى منك رعبٌ في نواحيها

وفي قصيدة " حوار مع كورونا " للشاعر الشيخ عبدالله كامل، يرى أن جائحة كورونا إنذار ربّاني وإشارة خطر للعالم كي يعود إلى رُشدِه وفطرته النقيّة الطبيعية، ويعتني بنفسه أكثر، فيقول :

أنا الإنذار من ربّي إليكم بكلِّ لغاتكم لو تفقهونا
أهينُ شرادماً عبدتُ عبداً وبالله المهيمن يكفرونا
أراكم تحت قصفي اليوم صرعى ومَرضى والبقية خائفونا
دخلتُ قصور أرباب المعالي فهم بين المخابئ سافلونا
وذكّرتُ الطغاة عذابَ يومٍ عقيمٍ فأنبَروا يتعمّمونا
... بنو صهيونَ دوّخهم صياحي بأيِّ جدارٍ وهم يحتمونا

ولقد أخذ بعض الشعراء يعود بالذاكرة، ويسترجع سِفَرَ الشعراء العشاق أمثال عنترة بن شداد وعمرو بن كلثوم وابن زيدون، وينظمون قصائد شعرية يعارضون فيها تلك القصائد بأسلوب طريف وبمستوى رفيع من الشعر وحرّفية عالية في قلب مسارات القصائد السابقة، وتغيير رؤاها، ليعكسوا حالة الناس في زمن جائحة الكورونا التي أرعبتهم وعزلتهم وحجرتهم في المنازل وأغلقت دور العبادة والأسواق وصلات الأفراس، وألهبت مشاعر الحب، وخيّمَت عليها بلباس الهلع والفرع من العدوى، فصار الحب عن بعد كما هو التعليم عن بعد .

وفي هذا السياق اشتهرت قصيدة على لسان عنترة بن شداد، وصدرها الشاعر بقوله : " عندما ضرب فيروس كورونا ديار بني عبس، قال عنترة بن شداد هذه الأبيات " نقتطف منها :

يا دار عبلة في الفناء تكلمي
 إن البقا في البيت أصبح واجباً
 فاليوم قد مُنِعَ التجوّل فاعلمي
 كوفيد لا يدري بأنك عبلة
 لا تخرجي يا عبتي كي تسلمي
 وبأنّ عنترَ فارسٍ لم يُهزَمِ
 ... هلاً سألتِ الغربَ يا بنة مالك
 كم مات منهم كم بغير تكتّم
 فلكم أذاقهم كورونا ذلّةً
 ويسومهم قتلاً بغير تكلم

واستدعى الشاعر خالد جميل الصدقة معلقة عمرو بن كلثوم التي مطلعها :

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ولا تُبقي خمور الأندرينا

وعارضها بقصيدة سُميت " المعلقة الكورونية " . والجدير بالذكر أنّ الشاعر خالد جميل تُوفي في الكويت في أبريل 2020م بسبب إصابته بفيروس كورونا بعد شهر من كتابة القصيدة، حيث قال :

ألا هبّي بكمام يقينا رذاذ العاطسين وعقّمينا
 فنحنُ اليوم في قفصٍ كبيرٍ وكورونا يبثُّ الرُعبَ فينا
 إذا ما قد عطسنا دون قصد تلاحقنا العيونُ وتزدرينا
 وباءٌ حاصر الدنيا جميعاً وفيروسٌ أذلّ العالمينا

وتأتي قصيدة " الحُب في زمن الكورونا " للشاعر السوري نزار عابدين، الذي استلهم عنوان قصيدته من رواية غابرييل ماركيز " الحُب في زمن الكوليرا " . وعارض فيها قصيدة ابن زيدون " النونية " التي مطلعها :

أضحى التناي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

أمّا قصيدة نزار عابدين فترصد التحوّلات في قاموس الحب التي أحدثتها جائحة

كورونا التي قلبت الحياة بكل أبعادها رأساً على عقب، وقيدت العلاقات الاجتماعية، وفرضت قانون: الحب عن بُعد، فيقول:

أضحى "التباعد" دستور المحبين ما عاد ينفع في اللقيا تدانينا
 "لَمِي" يديك فإني لن أمدّ يدي كَفُّ تلامسُ كَفًّا كان يُغرنا
 كان العناق كأحلام تُراودنا واليوم نخشى عناقاً منك يُعدنا

وهكذا تبين لنا بوضوح دور الشعر في الزمن القديم والحديث في مواجهة الأوبئة انسجماً مع طبيعة الشعر المتفاعلة مع الحياة وتأثره بالموضوعات والقضايا الإنسانية، وانفعاله بالحياة بكل أحداثها ومشاهدها المفرحة والمُحزنة من خلال خطاب شعري يُبرز كيمياء الشعر وفِعْله في تسليط الضوء على آمال الناس وآلامهم .

حمد عبّيد العجمي

الأوبئة في الشعر النبطي

نحاول في هذه الورقة عرض بعض الأوبئة التي وردت في الشعر النبطي منذ بداياته حتى منتصف القرن العشرين؛ ذلك أن الشعراء في تلك الحقبة محل الدراسة قد عايشوا تلك الأوبئة أو تفاعلوا معها عن كثب. وتركز هذه الورقة على ثلاثة أنواع من الأوبئة وهي السل، والجذري، والطاعون. ومن خلال البحث في مصادر الشعر النبطي تبدو لنا تجليات هذه الأوبئة في ذلك النوع من الشعر متشابهة أحياناً ومختلفة أحياناً أخرى. فتظهر هذه الأوبئة بشكل عابر في بعض الأمثلة، وهذا يدل على تجذرها في لغة الشعراء ووعيهم. كما تظهر بعض هذه الأوبئة بشكل موسع في بعض الأمثلة من الشعر النبطي موثقة لنا تجارب أولئك الشعراء مع تلك الأوبئة. وبهذا العرض سنحاول أولاً: أن نتمكن من فهم طريقة تناول الشعراء وتوظيفهم لتلك الأوبئة. ثانياً: سنحاول أن نتعرف تلك التجارب الإنسانية للأوبئة وتأثيرها في ثقافة سكان شبه الجزيرة العربية.

أولاً: السل

والسل والسلال في لسان العرب هو: الداء، وهو داء يهزل ويضني ويقتل، قال ابن أحمَر:

أراننا لا يزال لنا حميم كداء البطن سلاً أو صفارا

وأشدد ابن قتيبة لعروة بن حزام:

بي السلّ أو داء الهيام أصابني فإياك عني لا يكن بك ما بيا

وفي الحديث: " غبار ذيل المرأة الفاجرة يورث السل "، ومعناه أن من ارتكب كبائر الذنوب وفجر ذهب ماله وافتقر، فشبّه ذهب المال بهزال الجسم إذا سل (ابن منظور، 2003، مادة: سلل).

ويسمى السل في المصطلحات الطبية الحديثة مرض (الدرن) وهو "مرض معدٍ يُصاب به الشخص نتيجة العدوى ببكتيريا تسمى المايكوبكتيريوم (Mycobacterium infectious disease)، التي تهاجم الرئتين، وقد تصيب أجزاء أخرى بالجسم منها الكلى، والدماغ، والحبل الشوكي . . . وينتقل الدرن عن طريق الرذاذ المتطاير من شخص إلى آخر عند العطس أو السعال أو البصق أو الاحتكاك المباشر وتنفس الهواء الملوث بالبكتيريا" (موقع وزارة الصحة السعودي).

وقد وردت مفردة السل باشتقاقاتها المتعددة في الشعر النبطي في سياقات متنوعة بشكل عابر. ومن أمثلة ذلك بيت لعبد الله الرشيد المتوفى سنة 1263 هـ/ 1847 م، في قصيدة يمدح فيها الإمام فيصل بن تركي ويفخر بذاته:

ومن خالف أمرك لو صديق فانا له من أول طاعون واليوم سلال

(الصويان، 2010: 143).

ومجيء السل في هذا السياق يكاد يكون نادراً؛ إذ يشبه الشاعر قوة فتكه بالعدو

بقوة فتك الطاعون والسل . فمعظم الأمثلة التي وقعنا عليها تظهر فيها لفظة السل للإشارة إلى الوباء بشكل مباشر ، فتارة نرى الشعراء يشبهون سوء حالهم بحالة من أصيب بالسل وتارة نراهم يدعون على من يخاصمهم بوباء السل . ومن تلك الأمثلة التي يشبه الشاعر حالته بحالة من أصيب بالسل أبيات لابن لعبون المتوفى عام 1247 هـ في الكويت ، وقد وردت هنا مفردة (سل) باشتقاقات متعددة ، في قصيدة راوحت موضوعاتها بين الشكوى من الدهر والحياة والعشق إذ يقول :

دار لهو مالها طر عدل	ما عداها لهوها دوم وعال
حارس سلال روحه ما سأل	ما على ما راده المولى سؤال
-----	-----
وا على حال على ماله سهل	عطله لهو الهوى دوم ومال
سامر أهوال الهوى وأهوى وحل	ما طوى سده وعاده للهمال
حاول السلوى وساوى للأسل	والهوى له ساحر سله سلال

(ابن لعبون ، 1997 : 31-30) .

وفي سياق الغزل وردت مفردة السل ضمن قصيدة غزلية لمحمد الصالح القاضي الذي توفي نحو سنة 0521 هـ :

أهايم وازايم كل هم يهمني ولا اسلا بلاك وسلني منك سلالتي

(الخالدي ، 1997 : 380) .

ويتضح لنا من خلال قصيدة ابن لعبون وبيت القاضي تلك الطاقة التعبيرية التي تحملها مفردة "سل" ؛ إذ تتيح للشعراء إمكانية التلاعب بالألفاظ بين السلوى والسل والسؤال والأسل بوصف السل داء متعلقاً بكل تلك المفردات سواء من حيث المعنى أو الاشتقاق اللغوي أو التشابه الصوتي .

ثانياً: الجدري

والجدري في لسان العرب هو: "قُرُوحٌ في البدن تَنْفُطُ عن الجلد مُمْتَلِئَةٌ ماءً، وَتَقَيِّحُ"، وأرض مجدرة، أي أرض ذات جدري. والجدري: "سِلْعٌ تكون في البدن خلقة وقد تكون من الضرب والجراحات، واحدها جَدْرَةٌ وَجُدْرَةٌ، وهي الأَجْدَارُ. وقيل: الجُدْرُ إذا ارتفعت عن الجلد وإذا لم ترتفع فهي نَدْبٌ" (ابن منظور، 2003، مادة: جدر).

وقد وردت مفردة الجدري باشتقاقات متعددة في الشعر النبطي بشكل عابر يشبه ذلك الشكل الذي لاحظناه في الشعر النبطي، ولكنه ظهر أيضاً بشكل آخر أكثر توسعاً يبين لنا مدى تجذر فكرة هذا الوباء وتأثيرها في الثقافة العربية البدوية. ومن خلال الأبيات التي نتحدث عن الجدري والقصص المصاحبة لها نستطيع أن نتعرف ذلك التأثير.

فهذه قصة لرجل يدعى عقيل الجنفاوي الشمري وابن عمه فرحان، ويخبرنا الرواة أن خلافاً حصل بين عقيل وأبناء عمومته، وهم اثنان ووالدهما معهما. وقد ضرب عقيل أحد أبناء عمه وفر هارباً لكنهم لحقوا به، وعندما أدركوه أطلق رصاصة من بندقيته على أحدهم فقتله وأطلق رصاصتين أخريين فأصاب الولد الآخر وأصاب والدهما فأخذ الاثنان، الولد والوالده، يعثران بسبب الإصابة. عاد عقيل إلى قومه وطلب منهم إسعاف الحي ودفن الميت ممن أطلق عليهم الرصاص. هرب عقيل بعد ذلك ولجأ عند أخواله من فخذ الغيثة من قبيلة شمر، فأقام عند خال له يدعى دريعان. بعد مدة خرج دريعان إلى الحج في مجموعة من الغيثة وخرج عقيل حاجاً معهم. عندما علم ابن عمه فرحان بذلك جمع رجالاً من قومه لينتهاز الفرصة لعله يجد من القوم غرة فيثأر من عقيل ولكن عقيلاً وجماعة الغيثة علموا أن فرحان يتربص بهم فاجتمعوا في مكة وكونوا حلقة حول عقيل لحمايته. أخبر بعض الرجال فرحان بأن عقيلاً وأخواله قد علموا بمجيء فرحان؛ وبذلك فشلت خطة فرحان، فأشاروا عليه أن يستثمر مجيئة بالحج والعبادة. حج فرحان وعندما خرج من عرفات أصيب بمرض وعندما انتهى الحج وطافوا طواف الوداع وعادوا إلى ديارهم توقف قوم فرحان للاستراحة في الطريق عند ماء في منطقة "ركبة"، وعلموا بأن المرض الذي أصاب فرحان هو مرض الجدري؛ إذ تبينت على جسده النفور. قرر قوم فرحان التخلي عنه خوفاً من العدوى وطفقوا يضعون عليه "العنة"، وهي مجموعة

من الأخشاب والحطب لتحميهِ من الحيوانات المتوحشة في الصحراء . قال قوم فرحان :
يا فرحان والله ليس بيدنا حيلة على هذا المرض وكلنا " غزلان " ؛ أي لم يصبنا المرض ،
(يطلقون مسمى " غزال " على من لم يصبه الجدري) . تُرك فرحان وحيداً في الصحراء .
علم أحوال عقيل بهذا الخبر فاستبشروا خيراً وتوجهوا لييشروا عقيلاً بالخبر ؛ لأن من
يطلبه الثأر على وشك أن يموت ، ولكن عقيلاً عندما سمع بالخبر ؛ وقد كان على وشك
أن يضع لقمة من العشاء في فمه ، فرماها وطفق مسرعاً إلى ناقته ، فاعترض طريقه خاله
دريعان ممسكاً بتلابيبه يقول : إلى أين يا عقيل ؟ رد عقيل وقد خشي أن يحلف خاله عليه
أن لا يغادر فتعمد إغضاب خاله ليركبه فقال : أريد ابن عمي ، فرد عليه دريعان : " يا عل
تعمى عينك أنت وابن عمك " يوبخ عقيلاً على نيته في إنقاذ رجل يتبع عقيلاً وهو حاج
إلى مكة متعبداً ليقتله . ولكن عقيلاً رد على خاله دريعان قائلاً أنك يا خالي لا تعاني
مما بي ، فأنت تنعم برفقة أبناء عمومتك من حولك ، أما أنا فليس لي إلا ابن عم واحد
قد تُرك في منطقة " ركبة " وأريد أن أعالجه فإذا جئتمونا أنت يا خالي وأبناء عمومتك
في غزوة تجدونه أمامكم يحمل قناة عظيمة ليردكم . غضب دريعان من قول عقيل فتركه
يغادر . فذهب عقيل متتبعاً طرق الحجاج إلى منطقة " ركبة " حتى وجد ابن عمه فرحان
على شفا حفرة من الموت بسبب الجوع والبرد والمرض . أناخ عقيل الناقة فأصدرت صوتاً
سمعه فرحان ، وعلم فرحان أن أحداً لن يأتي لإنقاذه إلا ابن عمه عقيل . قال فرحان وهو
من تحت الأخشاب " العنة " : " عقيل ؟ " قال عقيل : " نعم " ، فقال فرحان " اخس الله
يخسك ما أبطأ فرجك " . فاعتذر عقيل على تأخره ؛ ذلك أنه لم يعلم بالخبر إلا متأخراً
وبادر بالاعتناء بابن عمه ومعالجته وإطعامه لمدة شهرين كاملين أنفق كل ما لديه حتى وصل
به الحال إلى ذبح ناقته لإطعام فرحان حتى شُفي من مرضه مع نهاية فصل الشتاء .
وقد نظم عقيل هذه الأبيات أثناء إقامته مع فرحان لإسعافه :

يا راكب اللي ينجبونه من التيه	حمرا ردوم تو ما شق نابه
عامين مع ذروة طييحٍ معفيه	والى حضرت عازاتنا جاك ما به
عليه صبيي يدي العلم راعيه	قرم يودي الحاجة اللي عنى به

باغيه يأخذلي سلام ويديه
 والى انشدوا عني يقولون وش فيه
 قل له قعد ما هنات حي حواليه
 بيسهله ما عنده اللي يحاكيه
 يتنى ابن عمه لين ربه يعافيه
 قالوا لي الحساد ليّاك تطريه
 والله دين يا ابن عمي ما اخليه
 أخاف من هرج يجيبه ويديه
 أصبر على ما صاب نفسي وامضيه
 لربعي مطوعة العدو بالحراة
 ابد العلوم اللي معك لا تهابه
 بدو من البيدا تقادح سرايه
 كود الطيور الطايرة والذباية
 والا يحط بحفرة من ترابه
 ولا طعت هرج اللي حكي بالسباية
 ولا طعت أنا هرج علي به عتابه
 راعي الثقيلي والحسد سد بابيه
 واطلب يا علّه خيرة والهدى به

قرر عقيل أن يأخذ ابن عمه فرحان ليعودا لقومهما فما زال فرحان هزياً لا يستطيع
 العودة بمفرده . وهما في الطريق التقيا رجلاً من القبيلة يعرفهما فبشرهما بأن أهلهم بخير
 وعافية ولكنهم قد يتسوا منهما؛ لأن فرحان أصيب بالجدري وعقيل " غزال " لم يصب
 بالجدري من قبل فليس لديه مناعة ضد المرض فتوقعوا بأن الرجلين قد ماتا معاً . استعار
 عقيل وفرحان ، ناقة من صاحبهما وتوجها إلى أهلهما . كان أهل عقيل في مكان آخر دون
 أهل فرحان ولكن فرحان أصر على عقيل أن يذهب معه إلى والده ليسلم عليه ويضيفه .
 ومع بزوغ شمس اليوم التالي ظهر فرحان وعقيل من خلف الكثبان الرملية على أهل
 فرحان فاستبشر الناس بسلامة الاثنين محتفلين بيوم أشبه بأيام العيد بالنسبة لهم . مكث
 عقيل ليلة عند فرحان وأهله ، وفي صبيحة اليوم التالي عندما هم عقيل بالرحيل إلى أهله
 وقف والد فرحان قائلاً : يا عقيل ، خذ هذه الناقة عوضاً عن ناقتك التي أطعمت جزورها
 لفرحان ، والآن يا ولدي (عقيل) نحمد الله على سلامتكم وسلامة فرحان ، فقد عفوت
 عنك وأسقطت عنك دية القتيل . شكر عقيل فعلة عمه ولكنه أبى إلا أن يدفع الدية خشية
 أن تثور أحقاد الثأر بين أبنائهم في عصور لاحقة (الصويان ، 2010 : 659-663) .

من خلال القصيدة السابقة والقصة المصاحبة لها يتبين لنا تأثير وباء الجدري بوصفه

مصاباً جلاً قادراً على قلب موازين العلاقات الاجتماعية . وكما نشهد هذه الأيام قدرة جائحة كورونا على تغيير العلاقات سواء الاجتماعية أو السياسية، رأينا كذلك في القصة السابقة كيف تحول الأعداء إلى أصدقاء، وانقلب الأصدقاء إلى خصوم . ورأينا كذلك كيف يُعيد هذا الربوب العلاقات الاجتماعية وأواصر القربى بعد التفكك والشتات، وكأن القصة والقصيدة تحملان رسالة اجتماعية تعكس ثقافة العرب، والبدو على وجه التحديد، بأن أوقات المحن تحتاج إلى تكاتف وترابط، والأهم من ذلك كله أن تجاوز تلك الكوارث يتطلب تجاوزاً عن جميع الخلافات بين ذوي القربى .

ويرد وباء الجدري في سياق الهجاء؛ إذ يروي لنا الرواة أبياتاً يرد فيها وباء الجدري ولكن القصة المصاحبة للقصيدة تختلف في طبيعتها عن القصة السابقة . والأبيات لشاعر يدعى خضير الصعيليك الذي خرج في طريقه مسافراً وقد رأى مجموعة من الرجال والنساء فتوجه إليهم بغية أن يقدموا له الضيافة بعد أن أنهكه السفر، ولكن الرجال تلمثوا كي لا يعرفهم وصدوا عنه، وقد عرفهم الصعيليك فصد عنهم ونظم هذه الأبيات :

يا راكب ذيخ بالاوحدات مغوار	اسمر يرفع ريشته تقل باكور
أسود بهيم للرجاجيل عقار	أبيض ثغر ما قَلَط الكوع للزور
خله يدرهم بك على بيت نصار	ومن بيت نصار على بيت منصور
اخسوا خسيتوا يا ردين الاشوار	اهبوا هبيتوا يا عوج كل منقور
لى حل طاريهم على قد ما صار	ادعي عليهم كل ما اقعد وما اثور
كل يلطم خشته لاجل الانكار	هم تقل غزلانٍ وانا تقل مجدور

(الصويان، 2010 : 705).

يتبين لنا من خلال الأبيات السابقة والخبر المصاحب لها قدرة الشاعر على توظيف فكرة ما يسمى بالتباعد الجسدي أو التباعد الاجتماعي لهجاء الرجال الذين صدوا عنه رغبة في تجنب استضافته . فقد شبه الشاعر في البيت الأخير صدود الرجال عنه بصدود الناس عن الرجل المصاب بالجدري من باب ما يسمى بالتباعد الجسدي .

ثالثاً: الطاعون

الطاعون: يذكر ابن منظور في لسان العرب أن الطاعون في لغة العرب هو الداء المعروف وجمع طاعون، طواعين. ورجل طعين أي أصابه الطاعون. وفي الحديث الشريف: "نزلت على أبي هاشم بن عتبة وهو طعين". وفي الحديث أيضاً "فناء أمتي بالطعن والطاعون"، والمقصود بالطعن هو القتل بالرمح، وأما الطاعون فالمقصود به المرض العام والوباء والمعنى العام للحديث أن فناء الأمة يكون بالفتن التي تسفك فيها الدماء، وبالوباء (ابن منظور، 2003، مادة: طعن).

وقد وردت في الشعر النبطي مفردة الطاعون والطواعين بشكل عابر ولكننا وجدنا نموذجاً شعرياً فريداً من نوعه؛ إذ نرى فيه عاطفة الحنين في سياق البكاء على الديار والحزن على من مات بالطاعون. وهذا النموذج على الرغم من الاختلاف في نسبه بين شاعرين فإن الثابت عندنا أن الشاعر كويتي من البحارة الذين كانوا في البحر في أثناء اجتياح الطاعون للكويت وبعض الدول المجاورة لها.

ويذكر المؤرخون أن البحارة بعد عودتهم من رحلتهم البحرية إلى الكويت قد كتبت لهم النجاة من الطاعون؛ لأن اجتياح الوباء للكويت قد صادف موسم الغوص سنة 1247هـ/ 1831 م (الرشيد، 1978: 96). ويذكر يوسف بن عيسى القناعي أن الطاعون قد "فتك بالكويت فتكاً ذريعاً؛ بحيث إن أغلب البيوت خلت من سكانها بل عجز الناس عن دفن موتاهم في المقابر فأخذوا يدفنونهم في بيوتهم" (القناعي، 1946: 63). وهذه القصيدة تنسب للملا سعود الصقر، وتنسب كذلك لوالد الشاعر محمد الفوزان، وفيها وصف لتلك الأطلال وللوعة الشاعر على من فقد:

شفنا المنازل مثل دوي الفضا	عقب السكن صارت خلايا مخاريب
يا عين أمر الله واللي قضى	من حال أمره ما ترد النواحب
واحسرتي ليمن طرى ما مضى	عصر يذكرني الأهل والأصاحب
يا ونتي ونة كسير العضا	ونة صويب عطبه الناشيب
شف عقبهم ذقت كاسات اللضا	عدم الدوا ووين أجيب التطايب

وحجم الدمار الذي نراه في وصف الشاعر ليس من قبيل المبالغة الشعرية؛ إذ يؤكد المؤرخ ابن بسام أن هذا الطاعون الذي اجتاح الكويت وبعض البلدان المجاورة، كبغداد وسوق الشيوخ والبصرة والزيبر، أحدث دماراً كبيراً، فيقول ابن بسام عن هذا الوباء: "هلك فيه خلائق لا يحصيهم إلا الله تعالى، وانقطع فيه قبائل، وخلت من أهلها المنازل، وبقي الناس في بيوتهم صرعى لم يدفنوا، وانقضت البلدان من جيف الموتى وبقيت الأنعام والدواب سائبة ليس عندها من يعتني بها حتى مات أكثرها جوعاً وعطشاً وبقيت المساجد لا تقام فيها جماعة لخلو البلدان من أهلها ولا حافظ لأموالهم التي في البيوت" (ابن بسام، 2013: 267).

عرضنا في هذه الورقة بعض القصائد والأبيات من الشعر النبطي التي ورد فيها ذكر الأوبئة، وقد تبين لنا من خلال ما عرضنا كيف تناول الشعراء تلك الأوبئة، واستطعنا تعرف شيء من التجارب الإنسانية للأوبئة وتأثيرها في ثقافة سكان شبه الجزيرة العربية. علماً بأننا اقتصرنا هذه الورقة على ثلاثة أنواع من الأوبئة، وهي: السل، والجذري، والطاعون. وقد تركنا عدداً من القصائد والأبيات التي تضاهاي بعددها وأهميتها ما عرضنا، على أن نتناول كل ذلك في بحث موسع يتناول تحليل القصائد والأبيات فنياً وثقافياً.

المراجع

- الصويان، سعد العبد الله. (2010). أيام العرب الأواخر: أساطير ومرويات شفوية من شمال الجزيرة العربية مع شذرات مختارة من قبيلة آل مرة وسبيح. (بيروت، لبنان): الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- الخالدي، إبراهيم حامد. (2007). المعلقات النبطية: اقتراح غير ملزم: 100 قصيدة من أشهر ما قيل في تراث القصيدة النبطية. (الكويت): مانشيت للدعاية والإعلان.
- البسام، عبد الله بن محمد بن العزيز. (2013). تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق. تقديم وتحقيق: عارف أحمد عبد الغني. (دمشق، سوريا). دار العرب ودار نور حوران.

- ابن لعبون، محمد. (1997). ديوان أمير شعراء النبط محمد بن لعبون. جمع وتحقيق وشرح: عبد العزيز بن عبدالله بن لعبون. (الرياض، المملكة العربية السعودية). دار ابن لعبون للنشر والتوزيع.
- موقع وزارة الصحة السعودية: <https://www.moh.gov.sa/HealthAwareness/EducationalContent/Diseases/Infectious/Pages/Tuberculosis.aspx>
- الرشيد، عبد العزيز. (1978). تاريخ الكويت. وضح حواشيه وأشرف على تنسيقه: يعقوب عبد العزيز الرشيد. (بيروت، لبنان). منشورات دار مكتبة الحياة.
- القناعي، يوسف بن عيسى. (1946). صفحات من تاريخ الكويت. (القاهرة، مصر). دار سعد مصر.
- ابن منظور، جمال الدين محمد. (2003). لسان العرب. (بيروت، لبنان). دار صادر.

موسى ربابعة

كورونا بين المرحه والأدب والفن

ثمة علاقة وشيخة بين الأدب والفنون المختلفة وبين الأزمات والكوارث والمشكلات التي تفرع الإنسان وتدفع به إلى الوعي بالتغيرات التي يتعرض لها؛ فالوعي الإبداعي الذي يرافق هذه الأزمات مثل: الأمراض والكوارث الطبيعية والحروب، لا تصبح معاناة فردية، وإنما جماعية وإنسانية، فوعي الذات بالمستجدات التي تتولد فجأة، مثل الوعي بأزمة كورونا، جعل الإنسان يشعر أن ذاته مهددة بالمرض والزوال والفناء؛ فكيان الإنسان وكيان المجتمع والعالم أجمع يصبح أيضاً مهدداً، وهنا يأتي دور الأدب والفنون المختلفة لتعبر عن شعور الإنسان بهذه الكوارث؛ بحيث يصبح الأدب والفن ضرورة من الضرورات كما حدث ذلك عبر سيرة التاريخ التي رافقتها سيرورة أدبية وفنية عبرت عن وجدانات المبدعين وإحساساتهم ومشاعرهم.

لقد جسد الأدب صوت الإنسان وهو يحاول أن يعبر عن شعوره بالنوازل والكوارث، ومنها الأوبئة التي عانى منها الإنسان في رحلة الحياة، فثمة أعمال أدبية تحدثت عن الأوبئة واتخذت منها عنوانات، مثل: رواية الطاعون لألبير كامو والعمى لخورسيه ساراماغو، والحب في زمن الكوليرا لغابرييل ماركيز، ورواية القلعة البيضاء لأورهان هاموك وإيولا للروائي السوداني أمير تاج السر، وقصيدة الكوليرا لنازك الملائكة، وقصيدة علي الجارم التي نظمها عندما تفشت الكوليرا في مسقط رأسه. وكما يبدو فإن النزعة الإنسانية تطغى على هذه الأعمال، فالإبداعات التي رافقت أو تزامنت مع الكوارث، ومنها الأوبئة، لم تكن مقتصرة على عرق أو جنس معين.

وبالإضافة إلى ذلك هناك أعمال روائية عربية تصدت للأوبئة مثل رواية: إيولا لأمير تاج السر، ورواية عطارده للكاتب المصري محمد ربيع، ورواية أمريكا للروائي اللبناني ربيع جابر، وملحمة الحرافيش لنجيب محفوظ، ودعاء الكروان لطف حسين، واليوم السادس لأندرية شديد، وما كتبه الكاتب المصري أحمد خالد توفيق المشهور بأدب الخيال العلمي عن كثير من الكوارث والنوازل التي تهدد وجود الإنسان، ومن الطريف جداً أن الكاتبة التونسية أماني التونسي قد كتبت رواية بعنوان " الحب في زمن كورونا في مقابل الحب في زمن الكوليرا"

وللشعر دور مهم في التعبير عن الضمير الإنساني الذي يواجه وباء كبيراً مثل وباء كورونا، فثمة قصائد جديدة مثلت قفزات مهمة في دوائر الإبداع الشعري؛ مما يعني أن ثمة يقظة ضمير أدبي يعبر عن الحس الإنساني العميق الذي يشعر أنه مدفوع لإنتاج نص أدبي جديد يتناغم مع الحدث الراهن؛ فالشعراء الذين تناولوا وباء كورونا أكثر من أن يعدوا على الرغم من تفاوت مستوى شعرية هذه القصائد، لكنها عبرت عن رؤية جديدة جعلت الشعر ينهض بوظيفته الإنسانية التي تتجدد على مر العصور. ومن الشعراء الذين كتبوا قصائد جسدت مواقفهم الإنسانية من هذا الوباء: جاسم الصحيح، وفواز اللعبون، والدكتور علاء جانب، ونور الدين الوحيشي، وعمر عناز، وعبدالقادر الحصيني، وجمال القصاص، وأحمد ناصح طراحي، وإسلام علقم، وعلي الفاعوري، ومكي نزال، وغيرهم الكثير.

وفي سياق معاينة الشعراء لأزمة كورونا لجؤوا إلى فن المعارضة لقصائد من المعلقات وغيرها. إن استدعاء عيون الشعر العربي ومعارضتها، يعني إعادة إنتاج النص القديم بإسقاط اللحظة الراهنة على اللحظة الماضية، وإن هذا شكل مهم من أشكال التناص، إذ يقوم الشاعر المعاصر بقلب النص السابق وإنتاج نص جديد يتناغم مع اللحظة الآنية، وهذا ما فعله بعض الشعراء مثل الشاعر اليمني قطيري الشراعي الذي عارض معلقة عنترة قائلاً:

يا دار عبلة في الفناء تكلمي فاليوم قد منع التجول فاعلمي
 إن البقا في البيت أصبح واجباً لا تخرجي يا عبلي كي تسلمي
 كوفيد لا يدري بأنك عبلة وبأن عنتر فارس لم يهزم

ومن الطريف جداً أن الشاعر السوري الذي مات بسبب فيروس كورونا وكان يقيم في دولة الكويت قد قال قصيدة عن الكورونا يعارض فيها معلقة عمرو بن كلثوم، إذ يقول فيها:

ألا هبي بكمام يقينا رذاذ العاطسين وعقمينا
 فنحن اليوم في قفص كبير وكورونا يبث الرعب فينا
 إذا ما قد عطسنا دون قصد تلاحقنا العيون وتزدرينا

ونشر الشاعر الموريتاني محمد ولد الشيبية أيضاً أبياتاً تتحدث عن كورونا، ويعارض فيها معلقة عمرو بن كلثوم، إذ يقول:

سيداتي وسادتي العاشقينا حل مامنه كنتم خائفينا
 حرم الضم والعناق عليكم لا عناق (ولا هم يحزنونا)
 فتهداوا سلامكم من بعيد وتهداوا من بعده الصابونا

وقد قال أحد الشعراء متخفياً سمى نفسه أبا كامامة الكوروني الذي أطلق اسماً

جديداً على الأدب، وهو " أدب الوبائيات " :

وكنت أعشق قبلاً لحن عطستها وصرت إن عطست ينتابني الهلع
عزلتها من فؤادي مثل ما عزلوا مستوطنين بأرض الصين قد رجعوا

ويبدو أن أسلوب المحاكاة الساخرة هو الأسلوب المهيمن على النصوص التي اتخذت من المعارضة وسيلة لها للحديث عن وباء يهدد الإنسان والعالم . إن استحضار النصوص السابقة يتمثل في إعادة الحياة إليها بعد أن كانت محفوظة في بطون الكتب ، فالنصوص الحيوية تمتلك دينامية متواصلة وتتخلق في وعي من سيرورة التلقي ، التي يشكل فيها المتلقي أفق توقع جديد يتصادم مع أفق توقع النص الأصلي ؛ فنقل النصوص إلى سياقات راهنة ما هو إلا شكل من أشكال تفاعل النصوص وتشابكها وتناسلها ؛ إذ إن الفكاهة التي تشكلت في هذه النصوص أعطت النص القديم نكهة خاصة جعلته نصاً جديداً وطازجاً .

وقد كان للشعر النبطي والعامي والحلمنتيشي إسهام واضح في التصدي لوباء كورونا، ومن أمثلة ذلك ما كتبه الشاعر الموريتاني سيدي محمد بنين، والشاعر مشعل بن محماس الحارثي، ومن الشعر الحلمنتيشي كتب الشاعر ياسر سليم قصيدة بعنوان " طوبى لمن صان البلاد وأهلها " ، وهذا يعني أن الإحساس بفاجعة كورونا لم يقتصر على الشعر الفصيح، وإنما تعداه إلى الشعر النبطي والعامي والحلمنتيشي .

ومع أن العروض والمهرجانات المسرحية لم تعد ممكنة في زمن كورونا، فإن بعض كتاب النصوص المسرحية والمخرجين قد استمروا في عملهم، ومن الأمثلة على ذلك المسرحي التونسي منير العماري الذي قدم فديوهات مسرحية للأطفال لتوعيتهم بالمرض، وقدم في تونس أول عمل مسرحي بعد انتشار وباء كورونا وهو بعنوان " المنذرة " ، من إخراج عمر علي . وبث مهرجان المسرح العالمي على الإنترنت في شهر أذار من هذا العام .

واستغل بعض الفنانين الكاريكاتير والرسومات للتعبير عن أضرار وباء كورونا؛

فقد استخدمت الكاريكاتيرات والرسومات للترفيه والتوعية، فنشرت كاريكاتيرات تقول : " خليك بالبيت شئت أم أبيت " ، وفي غزة برز اسم الفنانة نيفين أبو سليم التي حجرت بعد عودتها من السعودية وأمضت فترة الحجر بالرسومات لتوعية الناس وتثقيفهم وكيفية مواجهة هذا الوباء، ومن أشهر الذين ساهموا بتوظيف الكاريكاتير في زمن الكورونا أسامة حجاج، وعماد عواد، وحمدي أحمد، وأحمد البزم، وغيرهم، وينيوي الملتقى العربي لرسامي الكاريكاتير عمل إصدار خاص يتضمن إسهامات فناني الكاريكاتير وأساليب مواجهة فيروس كورونا، وقدمت جمعية الكاريكاتير الكويتية إسهاماً واضحاً، وذلك بتخصيص صفحة من جريدة الأنباء لنشر الرسوم الكاريكاتيرية .

وهذا يعني أن الأدب والفنون المختلفة تجسد الأمل وتعمل على أن تكون أكثر النقاط إضاءة للوعي الإنساني؛ فهي تخاطب المشاعر والعواطف وترسم أفاقاً جديدة تطل بالمرء على الأمل والتفاؤل، فالأدب أخذ على عاتقه معالجة الكوارث والنكبات التي يتعرض لها الإنسان في كل زمان ومكان؛ إذ إن الأدب أو الفنون ليست شكلاً من أشكال الترف، وإنما هي ضرورة من ضرورات الحياة .